حل في النشوء ارتقاء

عند اصحاب علم الجماعة

طال البحث في الارتقاء زماناً ولكنهُ لم ينزل منزلة البحث العلمي الاَّ لقرنٍ مضى . على انك ترى اصحاب علم الكلام يقفون حتى اليوم من نظرية النشوء موقف المتصوّرين المستحضرين فلا يأتون شيئاً سوى آراء افلاطونية يفرغونها بعد طول مشقّة في قالب كأنك به جديد، على حين ان اصحاب علم الجماعة ينهجون منهجاً علميًّا اذ ينطلقون من المجهول الى المعلوم ومن الحسّ الى الادراك اي من التجربة الى التأويل فتراهم يحللون الرقي تحليلاً اويسوّون في الامر واليك بعض مذاهبهم بل أجلها شأناً

كونت (١)

ان (كونت) يعتمد على مبدئه هذا : إن الانسانية مطّردة الرقيّ في الزمان اي أنها تتوق الى كمال في طبيعتها والسبب في ذلك سعي المرء في تحسين حاله كائنةً ما كانت

ثم جعل كونت بعد البحث التاريخي يفتش عن نظام هذا الرقي فثبت عنده أنّ لهذا النظام ثلاث حلقات متسلسلة . فالحلقة الاولى عهد الدين والحلقة الثانية عهد ما وراء الطبيعة والحلقة الثالثة عهد الفلسفة الوضعية

ثم استنتج كونت من هذا النظام اصلين اولهما : ان الانسان لا حياة لهُ بنفسه فهو للجماعة ومنها وما الجماعة الاَّ «الموجود الاكبر» . وثانيهما: ان الانسانية ترقى بتتابع المراتب بمقتضى علاقة سببية فيما بينها خالية من غاية فوق العقل

سبنسر (٢)

لا اثر للفكر في تكوين الجماعات فشأنها شأن الاحياء اذ تتطور بحسب خطة مرسومة من قبل وها هي تحولت من البسيط الى المركّب ومن المتجانس الى غير المتجانس ومن غير المحدود الى المحدود

ثم ان الناس كانوا في بادئ الامر تبّاع غرائز لا عقول ، فلم يقع في امكانهم ان يوفقوا عمداً بين نزعاتهم وبين شرائط الحياة . والحرب التي مهّدت هذا التوفيق ثم مكّنتهُ

(١) Comte, — Cours de Philosophie Positive

(٢) Spencer — Sociology

بالوراثة . والذي بعث الحرب بين الرجل الأولي الى الغنيمة وسروره بالظفر. وما لبث ان صيّرت العاطفة الدينية اتقاء الاحياء اتقاء اموات

وقد انقضى شأن الحرب عند ما برزت الصناعة . فانصرفت الجماعات من حال حربي الى حال صناعي ولكنها لم تزل حربية فعلاً والبرهان على ذلك ما نشاهد اليوم

وأما المبدأ الذي يستند اليه سبنسر لاجل تنظيم مذهبه فإقامة فكرة الجماعة على التعاون. ففي الجماعات الحربية تعاون اندفاعي وفي الجماعات الصناعية تعاون يرمي الى غاية مقدّرة . ثم ان امر التعاون والمحاولة في تمكينه راجعان في عرف سبنسر الى سعي الانسان وراء السعادة

ريشار[1]

إن ريشار ينقد سبنسر فيقول ان الجماعات الاولية غير حربية . فهذه مصر قبل ملوك الرعاة وهذه الصين واليابان لم يكن الدين فيها اعظم شأناً من الحرب ؟ واما استنباط الدين من الحرب اي الانتقال من اتقاء الاحياء الى اتقاء الاموات فامر مرتاب فيه

ومن نقد ريشار أن الحرب نتيجة لا علة وانها مظهر جماعي[2] لا فردي

على أن ريشار لا ينكر الرقي فان الانسانية عنده تنصرف عن الغريزة الى الفكرة ثم تبتدع حاجات تناقض شرائط الحياة فيحدث التناقض ثورات وفي الثورات تقدّم . ولكن هذا الرقي غير مطرد فرعا جمد بل تأخر واسباب التأخر اسباب الرقي نفسها ومنها عامل البيئة والمعن التعاوني والتبادل والجنس والزمان والمكان .... ألم يبثنا (كارل ماركس) بلوس المدنية الحديثة شيوعية القبائل المتوحشة ؟ ومن السهل ان نلتمس هذا التأخر في القانون العام والقانون الدستوري وقانون العقوبات . واليك مثلاً ان للاسرة الانجليزية الحديثة بعض الشبه بالاسرة الابوية في عهد الرومان غير انها لما انتقلت الى اميركا وجعلت تسترق وتضم الرقاب انهاضم الاقارب اصبحت صورة صادقة للاسرة الابوية الرومانية

ومن الرقي ما يجب التأخر من ناحية اخرى . ومثل هذا مثل التخصص في البيولوجيا[3] : أفلا تنظر الى التقدم الصناعي وما يجرّ من اضطراب في الاخلاق تعلّق الناس بالمادة ولا نصرافهم عن الدين وخروجهم على التقاليد ولاستعدادهم للجنون ، او من

---

(١) Richard — l'Idée d'évolution dans la nature et dans l'histoire.
ريشار استاذ علم الجماعة في جامعة ذات شأن من جامعات فرنسا وله مذهب غير مذهب المدرسة الفرنسوية التي تعتني اعتناء «دركيم» وتسير بعالمها من دون ان تخرج عنها الخروج البسيط

(٢) جماعي يفتح الجيم نسبة الى الجماعة Sociologique

(٣) راجع مقتطف شهر مارس الماضي صفحة ٢٤١—٢٤٧

اضطراب في الهيئة الاجتماعية من جراء ازمة وبطالة عمال واهمال الزراعة وتكاثر عدد الحضر واستخدام الاطفال والنساء

دركيم (١)

بدأ دركيم بنقد كونت وسبنسر من حيث المنهج العلمي فأخذ عليهما جميعاً موقفهما الذاتي لأنّ شؤون الجماعة في نظرهم «اشياء» اي أمور تعرض للفيلسوف فيراها بعين مجردة ثم يتسع أن يتساءل عنها فهي التي تنبؤه عن نفسها

فلقد اخطأ كونت حينما ظنّ ان الانسانية اصلها شجرة واحدة ثم تفرعت . ولقد اخطأ سبنسر حينما جعل الجماعة قائمة على التعاون لأنها لبنا اليها ما حدثتهما به نفوسهما اذ تصورا الانسانية تصوراً وتخيلا طريقاً لها مرسوماً ثم ارادا ان يطبقا ما وفقا اليه على مظاهر الحياة طوال التاريخ ليثبتا اقوالهما ويصبغاها بصبغة علمية . ولكنهما اغتصبا التاريخ في الواقع . فهذا كونت سلسل المراتب بعضها من بعض وهو لا يدري ان الزمان غير مطرد فربما هيأت حال حالاً من دون ان تستوجبها لأن الانسانية مجمع جماعات متباينة لا صلة لبعضها ببعض في الغالب فهي كشجرة تنمو اغصانها في اشكال شتى وتنحي مناحي مختلفة . . . وهذا سبنسر جعل قوام الجماعة التعاون الاجباري حيناً والاختياري حيناً آخر . ولكن الامر مختلق يتعذر علينا ان نحققه بمجرد البحث النفساني بل الامر مخالف للاسلوب العلمي لأنه لم يستنتج من درس ضمّ الجماعات كلها وعارض بعضها ببعض واطمأن نهائيًا الى ان التعاون قوام الجماعة . فتحديد الجماعة بمثل هذا انما تحديد صادر من بين دفتي عقل سبنسر ليس الا

ولقد اخطأ الرجلان في علل الارتقاء من بعد ما اخطآ في مظاهره بل خلطا العلل بالغايات حيث ذهبا الى سعي الانسان وراء السعادة او وراء تحسين حاله . بيد ان العلم لا يفسر مظهراً من المظاهر بالغاية التي يرمي اليها وانما بالباعث الذي يدفعه فان منفعة الامر غير وجوده والوقوف على المنفعة غير التنقيب عن اصل الأمر . ثم ان حاجتنا الى المصل لا تشرح لنا من اين جاء المصل وكيف تطور وهذه القاعدة من قواعد البيولوجيا ونصها ان العضو منفصل عن الغاية

ولكن دركيم نفسه لم يقف عند هذا الحد فانه اعترف في بعض مصنفاته ان العالم خرج من الحيوانية الى الانسانية ومن دائرة الحركة الى دائرة التفكير وان ميزة العصور

(1) Durkheim — Division du travail social. Règles de la méthode sociologique.
اما دركيم فيلسوف فرنسوي ولد في الفوج سنة ١٨٥٨ ودرس في دار المعلمين العليا على بوترو وسنة ١٨٨٧ تولى منصب استاذ علم الجماعة في بوردو ولبث فيها خمس سنوات ثم نقل الى جامعة باريس

الاولية تعاون قائم على تشابه بين الأفراد (solidarité Mécanique) حالة ان ميزة العصور الحديثة تعاون قائم على تباين بين الافراد (solidarité organique). ولكنه لم يعترف قط ان الرقي هو المدنية او التفكير او تباين بين الأفراد بل عرض ما وفق اليه في بحثه وفي ذلك تأييد لمذهبه الذي بسطه لك وهو الفحص عن ظواهر الحياة من دون استعداد رأي ثم عرضها من دون تعليق عليها الا اذا ثبت البحث من جميع النواحي فبلغ بالباحث الى نتيجة لا سبيل عنها ولا ريب فيها

ومن الغريب ان منهج دركيم مستمد من فلسفة كونت. فلكونت الفضل في اثبات علم الجماعة وابرازه علماً وضعيًا مرتبطاً بالتاريخ ارتباطاً وثيقاً. ثم انه صرح قبل دركيم ان الشؤون الجماعية « اشياء » ليس للفيلسوف ان يؤولها بل عليه ان يتناولها على علاتها ولكنه بعد اذ فرغ من وضع هذا المنهج شرع في تطبيقه على بحثه فخالف منهجه بحثه اذ جعل موضوعه افكاراً لا ظواهر

***

وختاماً هل يصح لنا ان نطلق الى الارتقاء وان نقول مع سبنسر انه مطرد وأن له درجات وعلامات ؟

على أن سبنسر في ما رأيت قد اعتمد على مذهب دارون ذلك ان الاحياء تمضي من حال (ا) حتى حال (ي) مضيًا محتوماً لا تكتنف فيه، ان تنازع الاحياء تطوّر بها تطوراً عظيماً وحملها على التوفيق بين بيئاتها وبيئاتها. الا عدداً من علماء البيولوجيا يعدون عن هذا المذهب ولا يرتاحون الا الى بعضه اذ التطور في عرفهم غير مطرد، تارة قُدُماً وتارة خلفاً

وصحيح القول ان الرقي مع وجوده مجهول الظواهر والاعراض صعب التحديد. فمن ذا الذي يستطيع أن يقول ان مذهب الشيوعية ولما تتم ظواهره تأخُّر ومن ذا الذي يستطيع ان يقول ان الغريزة المشتركة بين الصبيان والفتيات ولما تتم تقدم ذلك لأن مرجع كل هذا الرأيُ الذاتي والرأي الذاتي بعيد عن العلم. على أنك ترى بعد مذهب دركيم وقفة علم الجماعة الحديث اذ يأبى الا ان يستنطق ظواهر الحياة من بعد ان ينطلق في البحث عنها ويتثبت من نواحيها ويعارض بعضها ببعض زماناً ومكاناً وشأنه في ذلك شأن العلوم الطبيعية ومن أجل ذلك علا قدره

القاهرة الدوار فارس
حامل ليسانس الآداب بباريس